

## الفصل الحادي والثلاثون

### ست النساء<sup>١</sup>

كان على قطر من أقطار الهند ملك عظيم الشأن، له الجنود والبنود، والقوة والسلطان، والعز والجاه.

وكان عادلاً في رعيته، يُحسن سياستهم، وتدير أمورهم؛ ويحب العدل، ويمقت الظلم، ويعرف مداخل الأمور ومخارجها، ولكنه مظلّم الروح، مادي النزعة، فاسد العقيدة، يعبد الأصنام، ويُقدّم لها القربان، ولا يؤمن بثواب ولا عقاب، ولا بخلود روح، ولا بمملكة نفس، وإنما الدنيا الحاضر، واللذة المال والجاه، والنعيم صنوف الترف. وكان له وزير روحي، يهزأ بالأصنام ويحتقرها، ويؤمن بالروح ومبادئها، ويقر بالجزاء الأوفى، ويعتقد أن السعادة في رضا الضمير، والعمل الصالح، وسمو النفس عن السفساف، وأن للروح مملكة فيها النعيم والشقاء، وأن نعيمها خير أنواع النعيم، وشقاءها شر أنواع الشقاء.

ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة الملك بذلك لشدته وجبروته، ولأن قلبه مغلق لا يفتح لمثل هذه المعاني؛ وكان يرثى لحاله كلما رآه يسجد للصنم، ويُسرف في الترف، ويظن أن المجد في النفوذ والجاه، والتغلب على ما جاوره من أقطار؛ ويتحين الفرصة لنصحه وتفتيح قلبه، ودعوته إلى روحانيته، ولكن هذه الفرصة لا تسنح، والملك يتمادي في تفاخره، وخيلائه وزهوه، وعزته وأنفته، ورياسته واستطالته؛ ويمعن في الخطة التي رسمها له أبأؤه، ويخضع لعرف زمانه وإلفه.

<sup>١</sup> أصل هذه القصة في كتاب «إخوان الصفاء» وليس لي فيها إلا صياغتها بأسلوب العصر.

وأخيراً حدثت المعجزة: طلب الملك من الوزير في ليلة أن يخرج متنكرين لتفقد أمور الرعية، كيف يعيشون، ويشقون أو يسعدون؛ فطافا ما طافا، ورأيا ما سرهما أحياناً وساءهما أحياناً، حتى وصلا إلى ظاهر المدينة، فرأيا — على بعدٍ — بصيصاً من نور، فقصداه فرأيا عجباً.

لقد تخفيا فلم يشعر بهما أحد، وتخيرا مكاناً يريان منه كل شيء، ولا يراهما أحد. رأيا دمنة قذرة الرائحة، بجانبها مأوى كأنه مغارة، فرشت فيه ثياب مهلهلة، تنبعث منه أبخرة متعفنة، يضيئه سراج من خرقة بالية غمست في زيت كأنه دُردي، وفيه جرة لا يعرف لونها من قذرها، وسلّة من خوص فيها كسر جافة، وعيدان من فحل وكراث؛ وفي داخله رجل وامرأة، أما الرجل فمشوه الخلقة، يلبس ثوباً مرقعاً ويجلس على ثوب مثله، وعلى رأسه شملة ممزقة، وعلى فخذة قصبه شد عليها عود، وهو ينقر عليها نقرًا غير مترن ولا منسجم، ويُغني بشيء يشبه الشعر وليس بشعر، يتغزل فيه بصاحبته وجمالها، وفتنتها وسحر عيونها، وورد خدودها، ولطف قوامها، وأنها أجمل من رأت عينه، وأنها فتنة الدنيا ونعيم الحياة.

وأما المرأة فشوهاء مقوسة، لا ترى عينها من قذاها، ولا تعرف لون ثيابها من ألوان رقعها، قد أمسكت بيدها غربالاً بالياً، وشدت عليه جلدًا غير مدبوغ، واتخذت من ذلك دقًا تتابع به نغمات صاحبها، وتناغم عليه نقرات عوده، فإذا انتشيا قاما ورقصا، فإذا أتما دورهما حياها بطاقة من فجل، وردت تحيته بطاقة من كراث، وهي في كل ذلك تدعوه بسيد الرجال، وهو يدعوها بست النساء:

**هو:** والله ما رأيت مثل جمالك.

**هي:** ولا والله ما رأيت مثل حسنك.

**هما:** ما أجزلها نعمة، أدامها الله علينا!

وقف الملك والوزير مبهوتين من هذا المنظر، متعجبين مما فيه هذان الصعلوكان من فرح وسرور، ولذة وحبور.

**الملك:** في حياتي ما رأيت مثل هذا، وما أظنني في عز سلطاني — ونعيم ملكي، وأيام شبابي، ومجالس لهوي مع وفرة أسبابي، وتمكني من الوصول إلى كل ما أشتهي — قد بلغ مني السرور مبلغ هذين الحقيرين، وأظن أنهما على تلك الحال كل ليلة، فما

الذي يمنعهما؟ هل يمنعهما نائر في أطراف المملكة، أو شغب الجند وطلبهم الأرزاق وضيق الدخل، أو النظر في المظالم، أو مشاكل الخاصة ومشاكل العامة، أو النظر في شكاوى الناس وتديبيرها، أو ما يجد كل يوم من مسائل معقدة، داخلية وخارجية، أو بريد يرد أو بريد يصدر؟ لا شيء من ذلك، فقد قطعاً عنهما أسباب الهم، فانقطع عنهما الهم.

لقد غاظني — أيها الوزير — منهما غرورهما، كيف يعدان بؤسهما نعيماً وشقاءهما سعادة، ونقمتهما نعمة، وقبحهما جمالاً، وغربالهما دقاً، وخشبتهما عوداً، وفجلهما وكراثهما زهراً، ثم يسألان من الله أن يُديم عليهما نعمته! لأنتقمن منهما انتقاماً يسلبهما نعمتهما، ويُغص عليهما عيشهما.

**الوزير:** وماذا تنوي أن تعمل يا مولاي العظيم؟  
**الملك:** أريد أن أشقيهما بالنعيم، وأعاقبهما بالترف، وأبعث فيهما السخط بالرضا، أذيقهما ألم فقدان بلذة الوجدان؛ إنهما لم يريا الجمال فسعداً بالقبح، ولم يسمعا الموسيقى فطرباً من الغربال، ولم يأكلا المرقق فاستطعما الكسرة. سأعذبهما عذاباً لم يعذبه أحد، وسأستخرج منهما غرورهما بالخيال فأشهدهما الحقيقة، وسأززع منهما الأوهام فأريهما الواقع، وسأقص جناحها الذي يطيران به إلى السماء ليلتصقا بالأرض.

سأخذ هذين المغرورين فأدخلهما قصري، وألبسهما من ثيابي، وأطعمهما من أكلي، وأشهدهما مجالسي، وأبسط لهما من سطوتي، وأسبغ عليهما جاهاً من جاهي؛ وسأشعرهما بلذة حياة كحياتي، وسأري المرأة كيف يكون جمال الرجال، وأري الرجل كيف يكون جمال النساء؛ وسأقيمهما في ذلك كله أياماً حتى يتعوداه ويألفاه ويتطبعا، ثم أردهما إلى حالهما، فما يهنآن بعيش، ولا يشعران بنعيم.

**الوزير:** أحشى — يا ملكي العظيم — أن نكون في لذاتنا وسرورنا واغتيابنا بجاهنا، واستمتاعنا بصنوف شهواتنا، وفرحنا بما حولنا، مغرورين غرور هذين المسكينين! وأن يكون فيمن حولنا من رأوا لذاتنا فاحتقروها، وضحكوا من غرورنا كما ضحكنا من غرورهما، واستصغروا الموائد الفخمة تمد والجواري الجميلات تخاطر، والملابس المترفة تعرض، والموسيقى الراقية تصدح، والجنود والبنود والأعلام تحمل شارتنا، وتأتمر بأمرنا، والذهب والجواهر تسيل سيلاً، والتحف والخيرات تنهال انهياراً؛ وتنظر إلى ذلك كله نظرننا لمأوى الصعلوكين ونعيم المسكينين.

**الملك** شامخاً غاضباً مستكبراً: وهل تعلم على وجه الأرض مملكة أعز من مملكتنا، أو سلطاناً أوسع من سلطاننا، أو بلدًا أكثر نعمًا من بلادنا، أو نعيمًا وترفاً أبهى من نعيمنا وترفنا؟

**الوزير:** لا يا ملكي العظيم، ولكن هناك قوم ليس لهم مملكة في الأرض، إنما لهم مملكة في السماء، ليسوا في مكان واحد، ولكنهم أقدان متفرقون في العالم كله؛ عشقوا الحق فاحتقروا الباطل، واعتقدوا وراء هذا العالم الظاهر كمالاً مطلقاً تتشوق الروح إليه وتسعى للاتحاد به، ودلهم النظر على أن كل إنسان يطلب بطبعه سعادته، ولكنهم رأوا اللذائذ الحسية عرضة للزوال، وهي تفقد قيمتها بتكرارها، وتحمل في طياتها منغصات، والإفراط فيها يضعفها، وهي — مهما عظمت — تصعد وتهبط، وتجيء وتذهب؛ وهي تعتمد على الإحساس والإحساس قلب، وما دامت تعتمد على الحس فهي تعتمد على الخارج، والخارج مهما كان في يدنا فليس ملكنا، وإنما هو كالريش في مهب الريح؛ من أجل هذا بحث هؤلاء الحكماء عن سعادتهم في داخل أنفسهم، ورأوا أن الجاه والعز والسلطان لا تساوي شيئاً في جانب أن يجد الإنسان نفسه؛ وأن الأكل الشهي، والملبس الأنيق، وصنوف اللهو والترف، تسقط قيمتها إذا وُزنت برضا النفس، وراحة الضمير، وسمو الفكر، ومعرفة الحق؛ تلك فانية وهذه خالدة، وتلك تجري عليها أحكام السلع من بيع وشراء، وسرقة واغتصاب؛ أما هذه فجلت عن أن تمتهن في مبادلة، أو أن تنالها يد بسوء، أو يعترها الفناء ولا بالموت.

تعشقوا الفضيلة وهاموا بها، وكانت لذتهم الأولى، اغتنوا أو افتقروا، نُعموا أو عُدُّوا؛ فهم في فقرهم يسعدون وفي عذابهم ينعمون!

أهم ما يشغلهم أن يعرفوا نفوسهم، وقد تطلبت منهم تلك المعرفة أن يعرفوا أبدانهم وعقولهم وروحهم، وعلاقة أنفسهم ببدنهم، وعلاقة العالم بنفوسهم، وفي ضوء هذا حددوا مطالبهم في الحياة، ووسائل طلبهم، وما يأتون وما يذرون، ووقفهم ذلك المنظر على عالم من المعارف لا تنتهي، ولذائذ روحية لا تحد.

وكان نهاية بحثهم وتفكيرهم الإيمان بالله فوق المادة هو خالق هذا العالم، وقد استدلوا بوحدة العالم — مهما اختلفت مظاهره السطحية — على وحدة خالقه، واتصلت نفوسهم به، فاتخذهم أمناء وحيه، وسفراء بينه وبين خلقه.

فلما وصلوا إلى ذلك احتقروا الأصنام، ورأوا أن عبادتها — يا ملكي العظيم — لا تليق إلا بالسذج ومن لا عقل لهم، فأعرضوا عنها، وعبدوا إلههم الذي دلته عليهم عليه

نفوسهم، ووجدوا لذتهم الحقّة في تفكيرهم في إلههم وفي أنفسهم، وفي العمل وفق ما اعتقدوا من حق، وما آمنوا من مبادئ.

وهؤلاء القوم إزاء اللذات الحسية وأعراض الحياة الدنيا — من عز وجاه وسلطان — صنفان مختلفان تبعاً لاختلاف مزاجهم؛ فأما قوم فأعرضوا عن هذه اللذات جملة، فلا الأكل يستغويهم، ولا النساء تستهويهم، ولا أي شيء من متع الحياة يغيرهم، ولا يهتمهم إلا أن يعيشوا في أنفسهم لأنفسهم، وليس هؤلاء خير الطائفتين؛ وأما الآخرون فرأوا أن لا بأس من لذات الحياة بقدر، ولا بأس من عز وجاه وسلطان يُستخدم في تحقيق العدل وحمل الناس على الخير، وهؤلاء نظرهم أصح، والخير على أيديهم أتم، وهو أصلح للحياة، وأصلح للقيادة، وهو أسعد من الأولين؛ إذ يستمتعون بجمال العالم، وبالخير يجري على يدهم، وبشعورهم أنهم قوة في توجيه العالم وإسعاده.

أولئك — يا ملكي العظيم — ينظرون إلى اقتصرنا على اللذات الحسية نظراً إلى لذات هذين المسكينين، ويرثون لحالنا رثاءنا لحالهما، ويجدون الفرق بيننا وبينهم أبعد من الفرق بيننا وبينهما، ولا يودون يوماً أن ينزلوا إلى درجتنا، وأن يكون حظهم حظنا، ويحمدون الله على ما أوتوا، ويسألونه السمو إلى الدرجات العلا.

**الملك:** متى عرفت هذا المذهب واعتقدت هذا الرأي؟

**الوزير:** من زمن طويل.

**الملك:** فما الذي منعك أن تذاكرني به في حينه مع طول صحبتك، ومظاهر

إخلاصك؟

**الوزير:** والله ما تركت الحديث عنه ضناً بك، ولا سوء ظن بمقدرتك وقوة ذهنك، ولكني علمت أن الحديث في هذا الشأن لا يتأتى إلا عند موآاة الفرصة وانسراح الصدر، وأيقنت أن الأمر خطير، فالنفس مولعة بما ألفت، حريصة على ما ورثت، ولا تعدل عنه إلا بعزم قوي، ونية خالصة، وجهاد طويل، وهمة عالية في تعرف الحق واعتناقه؛ فلما سنحت الفرصة، ورأيت كل شيء حولنا صالحاً لمحدثك، ونفسك مستعدة لمذاكرتك، أفضيت بالأمر إليك راجياً الله توفيقك.

**الملك:** ما أعجب كلامك، ولست أذكر أن قد ورد على سمعي مثله، إنه ليفتح آفاقاً للفكر، ومجالاً للنظر، لقد آمنت بمبادئك في جملتها، وكفرت بعبادة الأصنام فلا صنم منذ اليوم، ولكن تفاصيل ذلك تحتاج إلى منهج يُرسم وخطط تُعد، ندرسها من غير أن نتأثر بإلف، ونبحثها من غير تقيد بتقليد، حتى نصل إلى النهاية، ونبلغ الغاية.